دراسات إسلامية
مجلة علمية سنوية محكمة
العدد التاسع / ١٤٣٨هـ ٢٠١٧م

الاستعارة المكنيَّة في نماذج من الآيات القرآنيَّة
"الوظيفة والجمال"

د. صديق مصطفى الريح
أستاذ مشارك بقسم اللغة العربية ، كلية الآداب ، جامعة الخرطوم

يصدرها قسم الدراسات الإسلامية ، كلية الآداب ، جامعة الخرطوم - قسم الثقافة الإسلامية بإدارة مطلوبات جامعة الخرطوم

(٣٨-٧)

ملخص البحث :

جاءت هذه الدِّراسة لاستجلاء أهمِّ وظائف الاستعارة – المكنيَّة تحديداً – وبيان جمال التَّعبير بها في آيات من التَّنزيل لا تتجاوز السَّبع ، بحسب ترتيب ورودها في المصحف ، باعتبار أنَّ فيما ذكر غُنية عن ذكر جميع الاستعارات المكنيَّة في القرآن ؛ وذلك أنَّ فيه بيانًا جليًّا لوظيفة هذا الضَّرب من الاستعارة وجمالها.

اتَّبع الباحث في دراسة النَّماذج المختارة للتَّمثيل المنهج الوصفيِّ التَّحليليِّ ، وذلك بعرض نصِّ الآية وتحليلها تحليلاً وصفيًّاً جماليًّاً يبيِّن ما أدَّته من وظيفة ، وما حوته من جمال التَّعبير.

وصلت الدِّراسة إلى نتائج من أهمِّها : أنَّ القرآن اتَّبع طرائق العرب في التَّعبير كما يقتضي التَّحدي بالإتيان بمثل القرآن. وأنَّ استعمال القرآن للاستعارة أبلغ من الحقيقة في ذلك الموضع ، لما تؤدِّيه من معانٍ وأغراض لا تؤدِّيها الحقيقة. كذلك تداخلت وظيفة الاستعارة المكنيَّة في القرآن مع الجمال التَّعبيريِّ.

Abstract

This study was conducted for elucidating the most important functions of figurative language; namely the metaphor, and clarifying the beauty of expression used in no more than seven verses from the Divine Revelation, according to their arrangement in the Holy Qur'an.

The researcher follows the descriptive analytical approach for studying the selected samples through displaying the text of the verse analyzing it in a descriptive aesthetic way that might explain its function and what it consists of beauty of expression.

The most important conclustion of this article is that the The Holy Qur'an follows the Arab's way of expression since the Qur'an challenged them that they would not do the same.

الاستعارة في القرآن :

للاستعارة في أدب العرب مكانة كبيرة ، وقد وجدت من اهتمام العلماء والنُّقاد ما هي جديرة به بحسب استعمال الأدباء لها منذ العصر الجاهليِّ ، إذ زيَّنوا بها أشعارهم وخطبهم وسائر كلامهم ، كما عبَّروا بها عن أفكارهم وخلجات نفوسهم ، فلا غرو أن نجد اهتمام أهل الأدب بها ، والبحث فيها مع الإشادات الَّتي لا يكاد يخلو منها كتاب من كتبهم. ولا عجب أن يزداد الاهتمام بها في القرآن الَّذي هو أفصح كلام جاءت فيه غرر الاستعارة في أعلى

صورها وأرقاها ، وجعلت الفصحاء منهم يسجدون عند سماعها كما في قصة الأعرابيِّ[١] الَّذي سجد عندما سمع قوله تعالى : ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [الحجر : ٩٤].

وقبل الحديث عن الاستعارات القرآنيَّة لا بدَّ أوَّلاً أن نقرِّر حقيقة أنَّ القرآن ما جاء بالاستعارة لأنَّها استعارة ، أو بالمجاز لأنَّه مجاز ، أو بالكناية لأنَّها كناية ، أو ما يطَّرد من هذه الأسماء والمصطلحات ، **" إنَّما أريد به وضع معجز في نسق ألفاظه ، وارتباط معانيه على وجوه السِّياستين من البيان والمنطق ، فجرى على أصولها في أرقى ما تبلغه الفطرة اللُّغويَّة على إطلاقها في هذه العربيَّة ، فهو يستعير حيث يستعير ، ويتجوَّز حيث يتجوَّز ، ويطنب ، ويوجز ، ويؤكِّد ، ويعترض ، ويكرِّر ، إلى آخر ما أُحصي في البلاغة ومذاهبها ؛ لأنَّه لو خرج عن ذلك ؛ لخرج من أن يكون معجزًا في جهة من جهاته ، ولاستبان فيه ثمَّة نقص يمكن أن يكون في موضعه ما هو أكمل منه ، وأبلغ في القصد والاستيفاء "**.[٢]

فالاستعارة إذن كما يرى الرَّافعيّ جاءت في القرآن جرياً على سنن العرب في الكلام ، واستكمالاً لقضيَّة الإعجاز والتَّحدي ، باعتبار أنَّ : **" العرب كثيراً ما تستعمل المجاز ، وتعدُّه من مفاخر كلامها ؛ فإنَّه دليل الفصاحة ، ورأس البلاغة ، وبه بانت لغتها عن سائر اللُّغات "**.[٣] والاستعارة جزء من عملية المجاز في سنن الكلام العربيِّ، وكما يقول ابن رشيق **" الاستعارة أفضل المجاز ، ... وليس في حلي الشِّعر أعجب منها ، وهي من محاسن الكلام إذا وقعت موقعها ، ونزلت موضعها "**.[٤]

أمَّا صلتها بقضيَّة الإعجاز فنجدها على سبيل المثال عند عبد القاهر الجرجانيّ الَّذي يعدُّها من عُمد الإعجاز وأركانه ، والأقطاب الَّتي تدور البلاغة عليها وذلك حين يقول : **" ولم يتعاطَ أحد من النَّاس القول في الإعجاز إلَّا ذكرها وجعلها العُمد والأركان فيما يوجب الفضل والمزيَّة وخصوصاً الاستعارة والإيجاز. فإنَّك تراهم يجعلونها عنوان ما يذكرون ، وأوَّل ما يُوردون "**.[٥]

---

[١] السيوطي ، الإتقان في علوم القرآن ، ٣/ ١٨٥.

[٢] الرافعي ، تاريخ آداب العرب ، ٢/ ١٧٠.

[٣] ابن رشيق ، العمدة ، ١/ ٢٦٥.

[٤] المصدر نفسه ، ١/ ٢٦٨.

[٥] الجرجاني ، دلائل الإعجاز ، ص٥٢١.

والقرآن كذلك لم يأتِ بالاستعارة إلَّا لأنَّها ما من موضع جاءت فيه الاستعارة إلَّا كانت أبلغ من الحقيقة في ذلك الموضع ، وكان لها من الأسرار الَّتي دعت إلى إيثار الاستعارة على الكلمة الحقيقيَّة ما يبرِّر ذلك الإيثار كما لاحظ الآمديّ حين قال **" إنَّ الكلام إنَّما هو مبنيٌّ على الفائدة في حقيقته ومجازه ، وإذا لم تتعلَّق اللَّفظة المستعارة بفائدة في النُّطق ، فلا وجه لاستعارتها "**.[٦] وكذلك أبو هلال العسكريّ الَّذي يرى أنَّ الاستعارة المصيبة لولا أنَّها تتضمَّن ما لا تتضمَّنه الحقيقة من زيادة فائدة ، لكانت الحقيقة أولى منها استعمالاً .[٧]

وعاب بعض المعاصرين اقتصار الأقدمين عندما تحدَّثوا عن الاستعارة في القرآن على ذكر أنواعها من استعارة محسوس لمحسوس بجامع عقليٍّ ، ومن استعارة محسوس لمعقول ، ومن استعارة معقول لمعقول أو لمحسوس ، ومن استعارة تصريحيَّة أو مكنيَّة ، ومن مرشَّحة أو مجرَّدة إلى غير ذلك من ألوان الاستعارة ، ويقول : **" وهم يذكرون هذه الألوان ، ويحصون ما ورد في القرآن منها ، ويقفون عند ذلك فحسب ، وبعضهم يزيد فيُجري الاستعارة ، ظانّاً أنَّه بذلك قد أدَّى ما عليه ، من بيان الجمال الفنِّيّ في هذا اللَّون من التَّصوير ، ولم أرَ إلَّا ما ندر من وقوف بعضهم يتأمَّل بعض هذه اللَّمحات الفنِّيّة المؤثِّرة ، وليس مثل هذه الدِّراسة بمجدٍ في تذوُّق الجمال ، وإدراك أسراره "**.[٨]

وإن اتَّفقنا مع الكاتب في أنَّ ما جاء من دراسة الاستعارة عند القدماء كان مجرَّد إشارات إلَّا أنَّنا لا نتَّفق معه في عدم قيمتها ، وقد فطن القدماء إلى مزاياها وخصائصها وما فيها من جماليَّات التَّعبير خاصَّة في القرآن ، كما نجد عند أعلام منهم مثل : الرُّمانيِّ والعسكريّ والجرجانيّ والزَّمخشريّ ، وهي لمحات لم يكن ينقصها إلَّا التَّوسُّع والجمع تحت عناوين محدَّدة؛ لتتَّفق مع الرُّؤية المعاصرة ، وهذا ما لا يُطالب به السَّابق.

وللاستعارة في القرآن مزايا بلاغيَّة متعدِّدة ، وقد توجد في الاستعارة الواحدة كلُّ هذه المزايا الَّتي سنقف عليها بالتَّفصيل من خلال النَّماذج المختارة ، وقد يبرز في بعض الاستعارات عنصر من هذه العناصر الفنيَّة أكثر من غيره. ومن هذه المزايا : شرح المعنى

---

[٦] الآمدي ، الموازنة بين الطائيين ، ١/ ١٩١.

[٧] ينظر ، أبو هلال العسكري ، الصناعتين ، ص٢٦٨.

[٨] بدوي ، من بلاغة القرآن ، ص١٦٧.

وتقريبه من ذهن السَّامع ، وتوضيحه في نفسه مع التَّأكيد ، وكذا المبالغة في إدخال المشبَّه في جنس المشبَّه به أو نوعه ، وتقديم المعنى في صورة غير معهودة تتشوَّق النَّفس إلى معرفتها ، والإشارة إلى المعنى الكثير باللَّفظ القليل **" الإيجاز "** ، وتزيين العبارة وإبرازها في حلَّة قشيبة تعشقها النَّفس وتنجذب إليها الحواسُّ. وقد أشار عبد القاهر الجرجانيّ إلى هذه الوظائف أو كما سمَّاها الفوائد مضيفاً إليها التَّصوير وتجسيم المعنويَّات وتشخيص غير العاقل بوصفها وسيلة يُستعان بها على تصوير المعاني و إبرازها ، وأنَّ جمالها وروعتها إنَّما تكون بحسن تمثيلها لما يُراد منها تمثيله ، وإبرازها في أحسن معرض ليحدث في النَّفس التَّأثير المطلوب فقال **" فإنَّك لترى بها الجماد حيّاً ناطقاً ، والأعجم فصيحاً ، والأجسام الخرس مبينة ، والمعاني الخفيَّة بادية جليَّة ، .... إن شئت أرتك المعاني اللَّطيفة الَّتي هي من خبايا العقل ، كأنَّها قد جسِّمت حتَّى رأتها العيون ، وإن شئت لطَّفت الأوصاف الجسمانيَّة حتَّى تعود روحانيَّة لا تنالها إلَّا الظُّنون "**.[٩]

أمَّا البلاغيُّون المحدثون فقد حاولوا تخليص الاستعارة من الشَّوائب الَّتي لازمتها منذ القرن السَّابع الهجريِّ في بلاغة السَّكاكيّ ومن دار في فلكه ، وكانت السَّبب في طمس معالم جمالها : ككثرة التَّفريع والتَّقسيم ممَّا أدَّى إلى غموضها وتعقيدها. فركَّز المعاصرون على إبراز فائدتها وتوضيح بلاغتها وحسن تصويرها ، فأصبحت عندهم قمَّة الفنِّ البيانيِّ ، وجوهر الصُّورة الرَّائعة ، والعنصر الأصيل في الإعجاز ، والوسيلة الأولى الَّتي يُحلِّق بها الشُّعراء ، وأولوا الذَّوق الرَّفيع إلى سماوات من الإبداع ما بعدها أروع ، ولا أجمل ولا أحلى ، فبالاستعارة ينقلب المعقول محسوساً تكاد تلمسه اليد ، وتبصره العين ويشمُّه الأنف ، وبالاستعارة تتكلم الجمادات ، و تتنفَّس الأحجار ، وتسري فيها آلاء الحياة على حدِّ تعبير الدُّكتور بكري شيخ أمين.[١٠] فكانت وقفات المعاصرين عند نماذج الاستعارات القرآنيَّة انعكاساً لهذه النَّظرة ، وقد وضح ذلك عند جماعة منهم يأتي على رأسهم سيِّد قطب في تفسيره في ظلال القرآن ، وكتابه التَّصوير الفنِّي في القرآن الكريم.

---

[٩] الجرجاني ، أسرار البلاغة ، ص٣٩-٤٠.

[١٠] أمين ، البلاغة العربية في ثوبها الجديد ، علم البيان ، ص١١١.

نماذج الاستعارة المكنيَّة في القرآن :

الاستعارة في جوهرها تقوم على عملية الانتقال من دلالة أولى ، إلى دلالة ثانية ، والعلاقة الَّتي تربط بين الدلالَّتين هي علاقة المشابهة ، وقد ورد في معظم الكتب البلاغيَّة القديمة حين تعرضها لحدود الاستعارة وبيان تعريفها أنَّ الانتقال في الدَّلالة والمشابهة هما الرُّكنان الأساسيَّان للاستعارة. وعلى حسب ما يصرَّح به من هذين الرُّكنين تكون تسمية الاستعارة : إمَّا تصريحيَّة وإمَّا مكنيَّة ، والأولى ما صرِّح فيها باللَّفظ المستعار كما في قوله تعالى : ﴿ **فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ** .... ﴾ [البقرة : ١٠]. إذ استعير لفظ المرض للنِّفاق مثلاً.

وأمَّا الثَّانية فهي الَّتي لم يُصَرَّح فيها باللَّفظ المستعار ، وإنَّما ذُكِر فيها شيءٌ من صفاته أو خصائصه أو لوازمه القريبة أو البعيدة ، كنايةً به عن اللَّفظ المستعار كما في قوله تعالى : ﴿ **هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ** ﴾ [الملك : ١٥] ، فهذه استعارة مكنيَّة ؛ لأنَّ " **الذُّلول** " من لوازم الحيوان المركوب وهو مستعار للأرض المحذوفة.

والاستعارة المكنيَّة من أعلى ألوان البيان لما فيها من خصائص فنِّيَّة وجماليَّة وهي بذلك تحرِّك المشاعر ، وتنبِّه العقول ، وتشيع في النَّفس أحاسيس ممتعة ، كما أنَّها تضفي نوعاً من الجدَّة على التَّعبير وعلى الصُّورة لتحقِّق معانيَ لم تكن تتاح لولا وجود الاستعارة. وهي هكذا في كلام البلغاء من البشر فكيف بها في كلام خالق البشر القائل : ﴿ **الرَّحْمَنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ** ﴾ [الرحمن : ١-٤].

قد حظيت الاستعارة المكنيَّة ونماذجها في كلام الأدباء بالاهتمام من حيث التَّنويه ببلاغتها الوظيفيَّة والجماليَّة في كتب القدماء والمعاصرين ، ولمَّا كان القرآن هو النّموذج الأعلى كان لا بدَّ من وقوف العلماء عند كثير من الآيات الَّتي جاءت على صورة هذا النَّوع من الاستعارة ، وإن كانت تلك الوقفات في أكثرها مجرَّد إشارات ، اختلطت فيها أنواع الاستعارة كما هو الشَّأن عند : الرُّمانيِّ ، وأبي هلال العسكريّ ، والشَّريف الرَّضي ، والزَّمخشريّ ، وعبد القاهر ، وغيرهم من الأوائل ، وبعض المعاصرين وعلى رأسهم : سيِّد قطب ، وأحمد أحمد بدوي ، والرَّافعي وغيرهم.

وسنكتفي هنا بنماذج مختارة لا تتجاوز الآيات السَّبع ، تغني عن تتبُّع هذا النَّوع في القرآن ، إذ إنَّ الغرض من هذه الدِّراسة ليس الحصر ، إنَّما بيان الوظيفة والجمال لهذا الضَّرب

من الاستعارات ، فضلاً عن أنَّ ذكر جميع مواضع الاستعارات المكنيَّة بحث يطول ؛ وحسب الباحث الإشارة إلى أمثلة توضِّح جمال تلك الاستعارات ، وتبيِّن وظيفتها ، ويكفي من السِّوار ما أحاط بالمعصم.

وفيما يلي دراسة نماذج منها في القرآن :

(١) قوله تعالى : ﴿ **أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ** ﴾ [البقرة : ١٦].

الإشارة بأولئك هنا إلى المنافقين الَّذين وصفوا في آيات سابقة لهذه الآية بالكذب والمخادعة ، والإفساد في الأرض ، ورمي المؤمنين بالسَّفاهة ، واستهزائهم بهم.[١١] وهم بهذه الأوصاف الَّتي اختاروها ، والأحوال الَّتي كانوا عليها مع رؤيتهم النُّور والهدى ، وتركهم إيَّاه كمن يشتري الضَّلال بثمن هو أعلى الأثمان ، وهو الهدى يدفعونه في سبيل أن ينالوا أقبح ما في الوجود وهو الضَّلال. وكما قيل : هنا يصحُّ أن يكون تخريج الكلام على الاستعارة الإفراديَّة[١٢] ، بتشبيه الضَّلالة الَّتي يطلبونها بالسِّلعة المردودة الكاسدة ، والهدى بالبضاعة الرَّائجة المطلوبة. وعلى هذا التَّخريج يكون قد شبِّهت الضَّلالة بسلعة تشترى ، وحذف المشبَّه به ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو الاشتراء على سبيل الاستعارة المكنيَّة ، والقرينة إثبات الاشتراء للضَّلالة.

واستعارة لازم المشبَّه للمشبه به – الَّذي هو حقيقة الاستعارة المكنيَّة – أدَّى وظائف ، وعبر عن المعنى الحقيقيِّ بجماليَّة لا تخفى ، نستجليه فيما يلي :

هذه من الاستعارات الَّتي تسمَّى باعتبار الملائم الاستعارة المرشَّحة ، وهي الَّتي قرنت بما يلائم المشبَّه به – السِّلعة هنا – ثمَّ ذُكر الرِّبح والتِّجارة فهما من ملائمات المشبَّه به **" السِّلعة "** ، وذلك ممَّا يقوِّي الاستعارة ويحقِّق المبالغة في التَّصوير والتَّخييل ، ودعوى دخول المستعار له في جنس المستعار منه ، وكأنَّ الكلام على الحقيقة ، ولذلك سمِّيت

---

[١١] في الآيات ٦-١٥ من سورة البقرة.

[١٢] وإذا خرَّجنا على أنها استعارة تمثيلية ، فيكون المعنى تشبيه حال رجل في يده هدى ونور وخير ، يتركه ليستبدل به شيئا لَا خير فيه ، وفيه فساد وضرر ، بحال تاجر يترك البضاعة الرائجة المثمرة إلى بضاعة كاسدة لَا ثمرة فيها(زهرة التفاسير ١/ ١٣٩). وهذا الضرب من الاستعارة خارج عن موضوع بحثنا.

بالاستعارة المرشَّحة ؛ إذ التَّرشيح معناه في اللُّغة التَّقوية ، وذكر ملائم المشبَّه به يبعدها عن الحقيقة ، ويقوِّي فيها دعوى الاتِّحاد الَّتي هي مبنى الاستعارة.[١٣] ومعنى ذلك أنَّ ذكر الرِّبح والتِّجارة يرشِّح حقوق المبالغة في التَّشبيه. باعتبار أنَّ في الاستعارة مبالغة في التَّشبيه ، فترشيحها بما يلائم المشبَّه به تحقيق لذلك وتقوية.[١٤]

ويضاف إلى ما سبق ما بين ألفاظ الكلام من جمال الملاءمة والتَّناسب بين المعاني ، فلمَّا استعار الشِّراء عقبه بذكر الرِّبح لمَّا كان مناسباً له في غاية الملاءمة لما سبق ، فالاشتراء هنا مستعار للاختيار ، والتِّجارة مستعارة لأعمالهم ، وواضح ما بين الاشتراء والتِّجارة من التَّلاؤم الَّذي زاد به التَّعبير وضوحاً وجمالاً كما يشير إليه قول الشَّريف الرَّضي : **" وإنَّما أطلق سبحانه على أعمالهم اسم التِّجارة لمَّا جاء في أوَّل الكلام بلفظ الشِّرى [١٥] تأليفاً لجواهر النِّظام ، وملاحمة بين أعضاء الكلام "**.[١٦]

وقد لاحظ ذلك الزَّمخشريّ فقال : **" ..... هذا من الصَّنعة البديعة الَّتي تبلغ بالمجاز الذُّروة العليا ، وهو أن تساق كلمة مساق المجاز ، ثمَّ تقفَّى بأشكال لها وأخوات ، إذا تلاحقن لم ترَ كلاماً أحسن منه ديباجة ، وأكثر ماء ورونقاً ، وهو المجاز المرشَّح .... فكذلك لمَّا ذكر سبحانه الشِّراء ، أتبعه بما يشاكله ويؤاخيه ، وما يكتمل ويتمُّ بانضمامه إليه ، تمثيلاً لخسارهم ، وتصويراً لحقيقته "**.[١٧]

والاستعارة هذه فيها إيحاء بكثير من المعاني الَّتي تتراءى من وراء الألفاظ ، وتلك سمة من أهم سمات الاستعارة القرآنيَّة الَّتي يسمو بها الكلام ، ويزداد بها المعنى ثراء ، لا نجدها لو جاء الكلام على أصله ، ولم يعدل به إلى المجاز. فهنا السِّرُّ البلاغيُّ في استعارة الاشتراء للضَّلالة ما توحي به من معنى الاستبدال – لأنَّ المشترِي يكون راغباً في الشَّيء المشترَى ، باذلاً للثَّمن فيه ، لأنَّه غير راغب فيه إذا قورن بما اشتراه. هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أنَّ الشَّيء المشترى ملازم لمن اشتراه ، أمَّا الثَّمن المبذول فيه فمفارق له متى وقع البيع بين

---

[١٣] حامد عوني ، المنهاج الواضح للبلاغة ، ٣/ ٢٦٨.
[١٤] ابن معصوم ، أنوار الربيع في أنواع البديع ، ٦/ ١٧٣.
[١٥] جاء في لسان العرب لابن منظور في مادة شري (الشِّراءُ يمَدُّ ويُقْصَر) ، ١٤/ ٤٢٧.
[١٦] الشريف الرضي ، تلخيص البيان في مجازات القرآن ، ص١١٤.
[١٧] الزمخشري ، الكشاف ، ١/ ١٠٨.

الطَّرفين ، وهؤلاء كانوا زاهدين في الهدى ، ولذلك بذلوه ثمناً فيما يحبُّونه وهو الضَّلالة ، فبيَّن هذا المجاز معاني وخفايا مستورة ، لم يكن للوقوف عليها سبيل لو عبَّر عنها بألفاظ الحقيقة.

كما توحي الاستعارة بمعنى دقيق ، هو أنَّه ينبغي لصاحب العقل والدِّين أن يدع هذه البيعة المذكورة في قوله : ﴿ **اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى** ﴾ حتَّى ولو كانت سبباً أكيداً للرِّبح فما بالك بها ، وهي ليست رابحة !

والاستعارة المكنيَّة هنا شأنها شأن بقيَّة الاستعارات القرآنيَّة المماثلة لها في التَّسمية ، وظيفتها تصوير المعاني بما يجلِّيها ويظهرها ماثلة للخيال ليتملَّاها فتؤدِّي المراد منها مع جماليَّة لا يخطئها المتذوِّق الفَهِم لما في هذه الصُّورة الحسِّيَّة من رونق وبهاء وتحريك للخيال ، يزيدها قوَّة تمكُّن لها في النَّفس ، كما ترى في هذه الآية موضع حديثنا ، حيث صورة الشِّراء بالحديث عن ربح التِّجارة والاهتداء في تصريف شؤونها.

فالمنافقون استبدلوا الضَّلالة بالهدى ، وصورة الشِّراء المعبِّرة عن هذا المعنى الذِّهنيِّ توحي بشدَّة حبِّهم للكفر والضَّلال ، وبغضهم للهدى ؛ لأنَّ الإنسان يشتري ما يحبُّه ، ويبيع ما يزهد فيه ، ثمَّ جاء قوله : ﴿ **فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ** ﴾ من قبيل ترشيح الاستعارة كما يقول البلاغيُّون لتقوية الصُّورة الحسِّيَّة ، وزيادة التَّخييل في الذِّهن من خلال استحضار عملية البيع والشِّراء ، وما جرَّت عليهم عملية البيع والشِّراء من خسران وهلاك. وصورة الشِّراء مألوفة لأنَّها مستمدَّة من واقع الحياة العمليَّة ، وفيها تأكيد معنى الخسران ، وترسيخ لمفهوم الصَّفقة التِّجاريَّة الخاسرة لهؤلاء الكافرين.

وفي الاستعارة ﴿ **اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى** ﴾ رسم لنموذج بشريٍّ ، واضح السِّمات يتَّصف بالغباء والبلادة ، فأولئك الَّذين تقدَّم الحديث عنهم ، قد بلغ بهم الغباء وعمى البصيرة أنَّهم باعوا الهدى والإيمان ؛ ليأخذوا في مقابلهما الكفر والضَّلال ، وباعوا ما يوصلهم إلى مغفرة الله ورحمته ؛ ليأخذوا في مقابل ذلك عذابه ونقمته ، فما أخسرها من صفقة ! وما أغبى الَّذين فعلوا ذلك نظير عرض من أعراض الدُّنيا! فخسروا بما فعلوه دنياهم وآخرتهم ، كأغفل ما يكون ممارس التِّجارة.

والاستعارة في الآية كما تقدَّم نموذجاً للمنافق في صورة قرآنيَّة ، كذلك تدلُّ الصُّورة على حقارة سلوك هذا النَّموذج ، فتقشعرُّ منه النَّفس ، وتشمئزُّ من سلوكه ، وتأبى أن تكون على مثاله من حرص على ربح هو في ذاته مصدر ضلاله وهلاكه ؛ لأنَّ الشَّأن في التِّجارة الرِّبح

والخسارة ، فيؤدِّي حرصه على الرِّبح إلى أن يقتل نفسه في سبيل ذلك ، فينتهي به الأمر إلى التَّهلكة. وبذلك يكون المقصد من توظيف الاستعارة لرسم صورة لهذا النَّموذج من البشر هو الحثُّ على التَّخلِّي عن صفاته الذَّميمة ، والتَّنفير منه.[١٨]

(٢) ومنه قوله تعالى : ﴿ **وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ** ﴾ [الأعراف : ١٥٤].

وهذه الاستعارة شعبة من شعب البلاغة كما يقول الزَّمخشريّ ، الَّذي يرى أنَّ التَّعبير القرآنيَّ يصور الغضب رجلاً يغري موسى عليه السَّلام ويقول له : **" قل لقومك كذا ، وألقِ الألواح ، وجرَّ برأس أخيك إليك ، فترك النُّطق بذلك وقطع الإغراء "**.[١٩] وعلى هذا استعير السُّكوت من الإنسان للغضب ، وحذف المشبَّه به ورمز إليه بشيء من لوازمه على سبيل الاستعارة المكنيَّة ، والقرينة إثبات السُّكوت إلى الغضب.

والَّذي جعل التَّعبير بلفظ السُّكوت مستعاراً للغضب عند الزَّمخشريّ شعبة من شعب البلاغة أنَّ قراءة من قرأ ﴿ **وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ** ﴾ **" لا تجد النَّفس عندها شيئاً من تلك الهزَّة وطرفاً من تلك الرَّوعة "**.[٢٠] يشير بذلك إلى قراءة معاوية بن قرَّة **" سكن "** والمعنى على ذلك ظاهر ، إلَّا أنَّه على قراءة الجمهور أعلى كعباً عند كلِّ ذي طبع سليم ، وذوق صحيح كما قال الألوسي.[٢١]

وعلو كعب قراءة الجمهور على الأرجح راجع إلى ما اختاره المفسِّرون **" من حمل المجاز على الاستعارة المكنيَّة ؛ لأنَّ الغرض وصف الغضب بأنَّه كان حاداً قد بلغ مداه من نفس موسى عليه السَّلام ، حتَّى أصبح هو الَّذي يقول ويفعل ، وهذا لا يتأتَّى على أكمل وجه إلَّا في الاستعارة المكنيَّة. وبهذا يبدو ذوق المفسِّرين وكونهم أقرب إلى طبيعة الأسلوب القرآنيِّ وجزالته "**.[٢٢]

---

[١٨] ينظر ، علي صبح ، التصوير القرآني للقيم الخلقية والتشريعية ، ص٨٤– ٨٥.

[١٩] الزمخشري ، الكشاف ، ٢/ ١٥٤.

[٢٠] المصدر نفسه ، ٢/ ١٥٤.

[٢١] الألوسي ، روح المعاني ، ٩/ ٧١.

[٢٢] المطعني ، خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية ، ٢/ ٣٤٨.

وبيان ذلك أنَّ السَّبب الَّذي أعلى من شأن هذه الاستعارة يرجع إلى ما تؤدِّيه من وظيفة لا تؤدِّيها الحقيقة ؛ إذ إنَّ السُّكون يفيد مجرَّد الانقطاع ، بينما السُّكوت معه توقُّع المعاودة إذا تجدَّدت أسبابه كما يفهم من عبارة الرُّمانيِّ **" وحقيقته انتفاء الغضب ، والاستعارة أبلغ ؛ لأنَّه انتفى انتفاء مراصد بالعودة ، فهو كالسُّكوت على مراصدة الكلام "**.[٢٣] إذن المراد سكن أو ذهب ، لكن **" سكت "** آكد لما يريده ؛ لأنَّ فيه دليلاً على توقُّع عودة غضبه إذا عاودوا عبادتهم العجل ، كما أنَّ السَّاكت يتوقَّع كلامه.[٢٤]

كما تتأتَّى الرَّوعة المشار إليها من جمال التَّصوير بخلع الحياة على الغضب وجعله مسلَّطاً على موسى عليه السَّلام يدفعه ويحركه ، أو كما يقول سيِّد قطب : **" هو تشخيص الغضب كأنَّه إنسان يقول ويسكت ويغري ويصمت "**.[٢٥] فحين نقرأ هذه الآية نرى التَّعبير القرآنيَّ يشخِّص الغضب- وهو أمر معنويٌّ- بصورة حيٍّ مسلَّط على موسى عليه السَّلام ، يدفعه ويحركه ، حتَّى إذا سكت عنه وتركه لشأنه عاد إلى نفسه ، فأخذ الألواح الَّتي كان قد ألقاها بسبب دفع الغضب له وسيطرته عليه. وهذا ما التفت إليه قديماً الزَّمخشريّ حين قال : **" هذا مثل ، كأنَّ الغضب كان يغريه على ما فعل ويقول له : قل لقومك كذا ، وألق الألواح ، وجرَّ برأس أخيك إليك ، فترك النُّطق بذلك وقطع الإغراء ، ولم يستحسن هذه الكلمة ولم يستفصحها إلَّا كلُّ ذي طبع سليم وذوق صحيح "**.[٢٦]

فإذن جمال هذا التَّعبير هو تشخيص الغضب ، في هذه الصُّورة الإنسانيَّة الفاعلة ، فهذا التَّشخيص هو الَّذي أكسب التَّعبير جمالاً ، وهو الَّذي أدركه الزَّمخشريّ ، وإن لم يُحكم التَّعبير عنه ، أو عبَّر عنه بلغة زمانه.

كما يلفت أبو السُّعود إلى جانب آخر من جوانب وظيفة هذه الاستعارة وجمالها إذ يرى في التَّعبير **" من البلاغة والمبالغة بتنزيل الغضب ، الحامل له على ما صدر عنه من الفعل والقول ، ومنزلة الآمر بذلك ، المغرى عليه بالتَّحكُّم والتَّشديد ، والتَّعبير عن سكونه**

---

[٢٣] الرماني ، النكت في إعجاز القرآن ، ص ٨٧.

[٢٤] ينظر ابن أبي الحديد ، الفلك الدائر على المثل السائر ، ٤/ ١٩٧.

[٢٥] سيد قطب ، التصوير الفني في القرآن ، ص٢٨.

[٢٦] الزمخشري ، الكشاف ، ٢/ ١٥٤.

بالسُّكوت ما لا يخفى ".[٢٧] يعني أنَّه تعبير في قمَّة البلاغة ؛ لأنَّ الله سبحانه وتعالى لَمَّا أراد أن يبيِّن شدَّة تمكُّن الغضب من موسى عليه السَّلام والمبالغة فيه شبَّه الغضب بإنسان يحرِّض موسى على ما صدر منه من الفعل بإلقاء الألواح ، ومن القول باشتداده على أخيه هارون – عليه السَّلام – فكأن هناك رجلاً اسمه الغضب كان هو الَّذي يغريه لأن يفعل ذلك ، فلمَّا سكت وتوقَّف الغضب عن هذا الإغراء حينئذٍ أخذ موسى الألواح.

وإلى جانب ما ذكر نجد كذلك إيضاح المعاني وتمثيلها ، والعمدة في ذلك الإيضاح هو التَّصوير ، بأن يعبَّر عن المعنى المعقول بألفاظ تدلُّ على محسوسات ؛ لأنَّ تصوير الأمر المعنويِّ في صورة الشَّيء المحسوس يزيده تمكُّناً من النَّفس ، وتأثيراً فيها ، فلذلك قد يجسِّم القرآن المعنى ، ويهب للجماد العقل والحياة ، زيادة في تصوير المعنى وتمثيله للنَّفس ، كما في هذه الصُّورة الاستعاريَّة : ﴿ **وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ** ﴾ ، **" ألا تحسُّ بالغضب هنا وكأنَّه إنسان يدفع موسى ويحثُّه على الانفعال والثَّورة ، ثمَّ سكت وكفَّ عن دفع موسى وتحريضه "**.[٢٨]

كما يفصِّل سيِّد قطب في دور التَّصوير بالاستعارة في إيضاح المعاني الذِّهنية ومن ثمَّ تأثيرها في المتلقِّي ، إذ يرى أنَّ التَّصوير هو الأداة المفضّلة في أسلوب القرآن ، **" فهو يعبّر بالصُّورة المحسَّة المتخيلة عن المعنى الذِّهني ، ثمَّ يرتقي بالصُّورة الَّتي يرسمها فيمنحها الحياة الشَّاخصة أو الحركة المتجدِّدة ، فإذا المعنى الذِّهنيُّ هيئة أو حركة "** [٢٩] ممَّا يساعد على إبراز ذلك المعنى في صورة تتملَّاها العين والأذن والحسُّ والخيال والفكر والوجدان.

وما ذهب إليه سيِّد قطب ما نجد مصداقه في هذه الاستعارة الَّتي تعدُّ من عيون الاستعارات القرآنيَّة ، إذ تجمع الصُّورة إلى جانب الحركة في نقل المعاني الذِّهنية عنصر الصَّوت ، لزيادة التَّأثير والإيحاء ففي قوله تعالى : ﴿ **وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ** ﴾ الصُّورة تعبّر عن هدوء موسى بعد ثورة الغضب ، ولكنَّ تصوير المعنى بالسُّكوت ، له مغزاه وإيحاؤه ، فالتَّصوير لا ينقل المعنى فحسب ، وإنَّما يرصد أيضاً ما يصاحب الغضب من

---

[٢٧] أبو السعود ، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم ، ٣/ ٢٧٦.

[٢٨] بدوي ، من بلاغة القرآن ، ص١٦٩.

[٢٩] سيد قطب ، التصوير الفني ، ص٧١ – ٧٢.

حركات وأصوات. **" إنَّها صور حيَّة شاخصة ، تتحوَّل فيها المعاني إلى أشخاص يثورون ويغضبون ، ويهدءون ، ويذهبون ، ويروحون ، علي طريقة القرآن الكريم في إحياء المعاني في الذِّهن والخيال ، ليتفاعل الإنسان معها على أنَّها أشخاص حيَّة ، وليست معاني ذهنيَّة مجرَّدة "**.[٣٠]

إذن الاستعارة في هذه الآية قد جرت على طريقة القرآن الَّذي يجسِّم المعنى ، ويهب للجماد العقل والحياة ، زيادة في تصوير المعنى وتمثيله للنَّفس ، فتجعله نابضاً بالحياة.

(٣) قال تعالى : ﴿ **وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا** ﴾ [الإسراء :٢٤].

وهذه من الاستعارات الَّتي شغلت علماء البيان ببلاغتها ، ونوَّهوا بفصاحتها وجمالها. والمراد اقطعهما جانب الذُّلِّ منك ، ودمِّث لهما نفسك وخلقك. وبولغ بذكر **" الذُّلِّ "** هنا ولم يذكر في ﴿ **وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ [الشعراء : ٢١٥]. وذلك بحسب عظم حقِّ الوالدين[٣١] ، وقوله **" من الرَّحمة "** من هنا لبيان الجنس ؛ أي أنَّ هذا الخفض يكون من الرَّحمة المستكنَّة في النَّفس[٣٢] ، أو يكون معنى الآية كما ذهب الزَّمخشريّ **" واخفض لهما جناحك الذَّليل أو الذَّلول ، بمعنى أنْ تجعل لذُّلِّه لهما جناحاً خفيضاً ، كما جعل لبيد للشَّمال يداً ، وللقرَّة زماماً**[٣٣] **، مبالغة في التَّذلُّل والتَّواضع لهما "**.[٣٤]

وبناء عليه يكون تخريج الاستعارة هكذا : شبَّه الذُّل بطائر بجامع الخضوع واستعير الطَّائر للذُّلِّ ، ثمَّ حذف ورمز إليه بشيء من لوازمه ، وهو الجناح ، على سبيل الاستعارة المكنيَّة ، والقرينة إثبات الجناح للذُّلِّ.

وإذا وقفنا لاستجلاء وظيفة الاستعارة وجمالها نجد من ذلك في هذه الاستعارة المبالغة في إكرام الوالدين وبرِّهما ما لا يخفى ، فالله تعالى أمر الولد بأن يليِّن لهما جانبه ، ويتواضع لهما ، فاستعير لفظ الجناح للتَّنبيه به على التَّخييل في الاستعارة بطريق المبالغة في طلب أن يكون

---

[٣٠] الراغب ، وظيفة الصورة الفنية في القرآن ، ص١٢٩.

[٣١] ينظر أبو حيان ، تفسير البحر المحيط ، ٦/ ٢٦.

[٣٢] ابن عطية ، المحرر الوجيز ، ٣/ ٤٦١.

[٣٣] يريد قوله : وغداة ريح قد وزعت وقرة إذ أصبحت بيد الشمال زمامها

[٣٤] الزمخشري ، الكشاف ، ٢/ ٦١٤.

الولد لأبويه كالطَّائر لفرخه في فرط حنوِّه عليه وتعطُّفه على محبَّته. وكما قال العلويّ : **" وإذا جعلته من باب التَّحقيق فتقريره أنَّه لَمَّا أراد المبالغة في لين الجانب للأبوين من جهة الولد ، استعار لفظ الجناح للتَّذلُّل والتَّواضع ، ونزَّله منزلة الجناح في التصاقه بالتُّراب وإسباله في التَّغطية للفرخ ، مبالغة في لين العريكة ، وحسن التَّذلُّل للوالدين "**.[٣٥] وممَّا يؤكِّد معنى المبالغة **" أنَّه لو قيل عوض هذه المقالة : تواضع لوالديك وللمؤمنين لرأيته خالياً عن ديباج البلاغة وعارياً عن ثوبها "**.[٣٦]

واختيار كلمة الجناح في هذا الوضع كذلك يوحي بما ينبغي أن يظلَّ به الابن أباه من رعاية وحبٍّ كما يظلُّ الطَّائر صغار فراخه ، فهي ذلَّة حانية ؛ لأنَّ خفض الجناح المراد هنا من قبيل التَّآلف العاطفيِّ ، لَا من قبيل الخنوع الذَّميم. وذلك كلُّه مفهوم من إضافة الذُّلِّ إليه لتكون الرِّعاية ذلا لهما ، وتواضعاً من غير استكبار ، وإنَّ ذلك التَّطامن والانكسار من الرَّحمة لَا من الذِّلَّة ، وفرق بين ذلِّ الرَّحمة ، فهو عطف ورفق وتطامن ، وذلِّ الاستخذاء والمذلَّة ، فهو ذلُّ خنوع ، وضعف من غير قوَّة ، وإنَّ هذا التَّعبير أعلى ما يمكن من تعبير العطف والرَّحمة.[٣٧]

وعليه فإنَّ إثبات الجناح للذُّلِّ بهذه العبارات النَّديَّة ، والصُّور الموحية ، يستثير القرآن الكريم وجدان البرِّ والرَّحمة في قلوب الأبناء ؛ ويجعل السَّامع يستشعر ما وراء الاستعارة في الآية الكريمة من حثٍّ للمؤمن على الخضوع لوالديه ، وأن يكون في خضوعه وبرِّه كالطَّائر الَّذي يرفرف بجناحيه حنوًّا وحنانًا ، حيث **" يشفُّ التَّعبير ويلطف ، ويبلغ شغاف القلب وحنايا الوجدان. فهي الرَّحمة ترقُّ وتلطف حتَّى لكأنَّها الذُّلُّ الَّذي لا يرفع عيناً ، ولا يرفض أمراً ، وكأنَّما للذُّلِّ جناح يخفضه إيذاناً بالسَّلام والاستسلام "** كما قال سيِّد قطب.[٣٨]

كذلك نجد في هذه الاستعارة اجتماع التَّخييل والتَّجسيم كما أشار سيِّد قطب في كتاب آخر[٣٩] ، وذلك بتصوير المعنويِّ المجرَّد جسماً محسوساً ، وتخييل حركة لهذا الجسم أو حوله من

---

[٣٥] العلوي ، الطراز لأسرار البلاغة ، ١/ ١٢٢.

[٣٦] المصدر نفسه ، ٣/ ٦٨.

[٣٧] ينظر أبو زهرة ، زهرة التفاسير ، ٥/ ٢٢٥٢ و ٨/ ٤٣٦٣.

[٣٨] سيد قطب ، في ظلال القرآن ، ١٤١٢ هـ ، ٤/ ٢٢٢١.

[٣٩] سيد قطب ، التصوير الفني في القرآن ، ص٨٤.

إشعاع التَّعبير. ففي ﴿ **وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ** ﴾ صوَّرت الآية أمراً معنويَّاً – الذُّل – جسماً محسوساً ، وخيَّلت حركة – الخفض – لهذا الجسم. وهذه الصُّورة الحسِّيَّة ، تجسِّم معاني الرِّفق واللِّين والتَّواضع ، لتكون محسوسة حاضرة في الأذهان دائماً. ويلاحظ تناسق هذه الصُّورة الحسِّيَّة مع المعاني الذِّهنيَّة المجرَّدة ، فالجناح هو وسيلة الارتفاع والانخفاض معاً ، وخفض الجناح يوحي بالهبوط والنُّزول من مكان مرتفع ؛ لأنَّ الطَّائر يضمُّ جناحيه في لحظة الهبوط ، ويخفضهما في حالة الارتفاع والطَّيران ، يبسط جناحيه ، ويحرِّكهما ، وهذه الصُّورة متناسقة مع صورة المتواضع ، وصورة المتكبِّر معاً ، في حالتي الهبوط والارتفاع للطَّائر. فالمتكبِّر ، يرتفع ويتعالى ، ويبسط جناحيه ، ويحرِّك أطرافه للارتفاع والتَّعالي ، وهي صورة الطَّائر في حالة الارتفاع والتَّحليق ، والمتواضع يخفض جانبه للنَّاس ، ويضمُّ أطرافه ، في حركة متناسقة مع صورة الطَّائر ، وقت هبوطه ، وخفض جناحيه.

وهكذا تكشف الصُّورة عن حقيقة الإنسان ، وما في نفسه من مشاعر متقابلة ، وخطوط متوازية ، ففيه استعداد للتكبُّر والتَّعالي ، وفيه أيضاً استعداد للتَّواضع ولين الجانب ، ومن خلال هذا التَّقابل بين الصُّورتين ، تتَّضح المعاني الحميدة ، والمعاني الذَّميمة ، ويتمُّ توجيه الإنسان التَّوجيه الدِّيني المطلوب.[٤٠]

إذن اجتمعت في هذه الاستعارة كلُّ أسباب الجمال بعد أداء وظيفتها ، وممَّا يدلُّ على قيمة هذه الاستعارة القرآنيَّة وجمالها ، أنَّ كلَّ ذلك الجمال في الاستعارة يذهب لو أظهرنا التَّشبيه ، وقد قيل **" فإنَّ تقدير التَّشبيه يخرجه عن رونق الاستعارة ويسلبه منها ثوب الإمارة "** [٤١] ، فإذا قيل : اخفض لهما جانبك الَّذي هو كالجناح ، **" لخرج الكلام عن حدِّ البلاغة ، وكلَّما ازدادت الاستعارة خفاء ازدادت حسناً ورونقاً ، وهذا هو مجراها الواسع المطَّرد "** كما قال العلويّ.[٤٢]

(٤) وفي الآية : ﴿ **قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا** ﴾ [مريم : ٤].

---

[٤٠] الراغب ، وظيفة الصورة الفنية في القرآن ، ص١١٩.

[٤١] العلويّ ، الطراز لأسرار البلاغة ، ١/ ١٦٣.

[٤٢] المصدر نفسه ، ٣/ ١٩٢.

وهذه من الاستعارات العجيبة كما يقول الشَّريف الرَّضي[٤٣] ، وهي من الاستعارات الَّتي وقف عندها المفسِّرون والبلاغيُّون ، والحديث عنها مستفيض ، وبلاغتها موضع احتفاء لديهم ، ونكتفي من ذلك بقول ابن عاشور : **" ولما في هذه الجملة من الخصوصيَّات من مبنى المعاني والبيان ، كان لها أعظم وقع عند أهل البلاغة ، نبَّه عليه صاحب الكشَّاف ، ووضَّحه صاحب المفتاح فانظرهما "**.[٤٤]

وبيان الاستعارة في الآية أنَّه **" شبَّه الشَّيب بشواظ النَّار في بياضه وإنارته ، وشبَّه انتشاره في الشَّعر وفشوِّه فيه ، وأخذه منه كلَّ مأخذ باشتعال النَّار ، ثمَّ أخرجه مخرج الاستعارة بالكناية ، بأن حذف المشبَّه به وأداة التَّشبيه ، فصار اشتعل شيب الرَّأس ، ... ثمَّ تركت هذه المرتبة إلى أبلغ منها وهي اشتعل رأسي شيباً "**.[٤٥]

ويمكن توجيه الاستعارة وجهاً آخر بأن يقال شبِّه الرَّأس بالوقود ، ثمَّ حُذف المستعار منه ؛ أي المشبَّه به ورُمز له بلازم من لوازمه ، وهو الاشتعال ، على طريق الاستعارة المكنيَّة ، وقرينتها إثبات الاشتعال إلى الرَّأس.

وأيًّا ما كان التَّوجيه فإنَّ في هذا النَّص من البلاغة ما يليق بالقرآن الكريم ، إذ هو كلام الله تعالى ، **" فإنَّ نسبة الاشتعال إلى الرَّأس ما يثير الاهتمام ، فيحاول العقل تعرُّف كيفيَّة اشتعال الرَّأس ، فيجيء التَّمييز " شيباً " بما يفيد اشتعال الشَّعر ، ولم يذكر الشَّعر بل اكتفى بذكر محلِّه "**.[٤٦]

ووظيفة الاستعارة في الآية كما التفت إليها القدماء تتمثَّل أساساً في بيان المعنى وإيضاحه اعتماداً على التَّشبيه الَّذي هو أصل الاستعارة ، وذلك ما تشير إليه عبارة ابن سنان الخفاجيّ : **" إنَّ هذا الكلام استعارة ؛ لأنَّ الاشتعال للنَّار ، ولم يوضع في أصل اللُّغة للشَّيب ، فلمَّا نقل إليه بان المعنى لما اكتسبه من التَّشبيه ؛ لأنَّ الشَّيب لما كان يأخذ في الرَّأس ويسعى فيه شيئاً فشيئاً حتَّى يحيله إلى غير لونه الأوَّل كان بمنزلة النَّار الَّتي تشتعل في الخشب ، وتسري فيه حتَّى تحيله إلى غير حاله المتقدِّمة ، فهذا هو نقل العبارة عن الحقيقة في الوضع للبيان. ولا بدَّ**

---

[٤٣] الشريف الرضي ، تلخيص البيان ، ص٢١٩.

[٤٤] ابن عاشور ، التحرير والتنوير ، ١٦/ ١٠.

[٤٥] النيسابوري ، غرائب القرآن ورغائب الفرقان ، ٤/ ٤٦٨.

[٤٦] أبو زهرة ، زهرة التفاسير ، ١/ ٤٦٠٩.

من أن تكون أوضح من الحقيقة لأجل التَّشبيه العارض فيها ".[٤٧] والنَّص واضح الدَّلالة على إفادة الاستعارة البيان والإيضاح لكيفيَّة انتشار الشَّيب في الرَّأس لاعتمادها على التَّشبيه الَّذي يقرب الصُّورة بذكر ما يماثلها ؛ فيكسب المعنى المراد وضوحاً أكثر.

كما ذهب إلى نحو ذلك ابن أبى الإصبع الَّذي يرى أنَّ الأصل في كلِّ استعارة إظهار الخفيِّ والمبالغة يقول : **" وعلى هذا فاعتبر الاستعارة لتعلم أنَّها على قسمين : قسم يجيء الكلام فيه على وجهه فلا يفيد سوى إظهار الخفيِّ فقط ، أو المبالغة فحسب ، وقسم يأتي الكلام فيه على غير وجهه فيفيد المعنيين معاً ، وأحسنها ما قرب منها دون ما بعد "**.[٤٨] وهي ما عرفت في كلام العرب إلَّا لتوضيح الخفيِّ وإظهار الغامض بالتَّشبيه الَّذي يتناسى فيه أحد طرفيه ، ولا يخفى أنَّ التَّشبيه هدفه الأوَّل الإيضاح والاستعارة تبنى عليه ، فلا بدَّ أن تؤدِّى وظيفته كلَّها أو بعضها. فالتَّعبير عن ظهور الشَّيب وانتشاره بالاشتعال قد أبرز الشَّيب في صورة واضحة بينة تجذب المشاعر وتنبِّه العقول إلى أنَّه **" لا يتلافى انتشار الشَّيب في الرَّأس كما لا يتلافى اشتعال النَّار "** [٤٩] ، كما قال أبو هلال العسكريّ.

كما أنَّ استعارة صفة الاشتعال للانتشار لا تقف عند وظيفة البيان فحسب ، ولكنَّها تحمل معنى دبيب الشَّيب في الرَّأس في بطء وثبات ، كما تسري النَّار في الفحم مبطئة ، ولكن في دأب واستمرار ، حتَّى إذا تمكَّنت من الوقود اشتعلت في قوَّة لا تبقي ولا تذر ، كما يحرق الشَّيب ما يجاوره من شعر الشَّباب ، حتَّى لا يذر شيئاً إلَّا التهمه وأتى عليه. **" وفي إسناد الاشتعال إلى الرَّأس ما يوحي بهذا الشُّمول الَّذي التهم كلَّ شيء في الرَّأس "** [٥٠] ، وهذا ما تشير إليه عبارة الرُّمانيِّ **" أصل الاشتعال للنَّار وهو في هذا الموضع أبلغ. وحقيقته كثرة شيب الرَّأس ، إلَّا أنَّ الكثرة لمَّا كانت تتزايد تزايداً سريعاً صارت في الانتشار والإسراع كاشتعال النَّار... وله موقع في البلاغة عجيب ، وذلك أنَّه انتشر في الرَّأس انتشاراً لا يتلافى كاشتعال النَّار "**.[٥١]

---

(٤٧) ابن سنان الخفاجي ، سر الفصاحة ، ص١١٨.

(٤٨) ابن أبي الإصبع ، تحرير التحبير ، ص٩٩.

(٤٩) أبو هلال العسكري ، الصناعتين ، ص٢٧٢.

(٥٠) بدوي ، من بلاغة القرآن ، ص٢١٨.

(٥١) الرماني ، النكت في إعجاز القرآن ، ص٨٨.

أيضاً تفيد الاستعارة هنا معنى العموم بسبب هذه الطَّريقة في النَّظم الَّتي يشير إليها عبد القاهر موازناً بين ﴿ **وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا** ﴾ وقول القائل : اشتعل شيب الرَّأس أو الشَّيب في الرَّأس ، فيقول : **" ثمَّ تنظر : هل تجد ذلك الحسن وتلك الفخامة؟ وهل ترى الرَّوعة الَّتي كنت تراها ؟ فإن قلت : فما السَّبب في أن كان " اشتعل " إذا استعير للشَّيب على هذا الوجه كان له الفضل ؟ ولِمَ بان بالمزيَّة من الوجه الآخر هذه البينونة ؟ فإنَّ السَّبب أنَّه يفيد مع لمعان الشَّيب في الرَّأس الَّذي هو أصل المعنى الشُّمول ، وأنَّه قد شاع فيه وأخذه من نواحيه ، وأنَّه قد استغرقه وعمَّ جملته حتَّى لم يبقَ من السَّواد شيء ، أو لم يبق منه إلاَّ ما لا يعتدُّ به ، وهذا ما لا يكون إذا قيل : اشتعل شيب الرَّأس أو الشَّيب في الرَّأس ، بل لا يوجب اللَّفظ حينئذٍ أكثر من ظهوره فيه على الجملة "**.[٥٢]

فجمال هذه الصُّورة عند عبد القاهر لا يرجع إلى الاستعارة بوصفها استعارة ، بل يرجع أيضاً إلى طريقة نظمها ، ويظهر ذلك في إسناد الفعل **" اشتعل "** إلى الرَّأس ، وهو في الأصل للشَّيب ، وبين الشَّيب والرَّأس علاقة ، وبذلك تحقّق الصُّورة الاشتعال للشَّيب في المعنى ، والاشتعال للرَّأس في اللَّفظ بالإضافة إلى ما يوحيه الإسناد من العموم والشُّمول للرَّأس كلِّه وقد عمَّه الشَّيب من نواحيه جميعاً.

والجمال هنا عائد إلى النَّظم وإلى شيء آخر وراءه ، وهو هذه الحركة التَّخييلية السَّريعة الَّتي يصوِّرها التَّعبير أي حركة الاشتعال الَّتي تتناول الرَّأس في لحظة ، فهذه الحركة التَّخييلية تلمس الحسَّ وتثير الخيال وتشرك النَّظر والمخيلة في تذوُّق الجمال.

فالصُّورة تدع الخيال أيضاً يشارك في تأمُّل صورة اشتعال الرَّأس بالشَّيب ، من خلال حركة الاشتعال المضمرة ، وما فيها من لمعان لون الشَّيب ، وبذلك تلامس الصُّورة حسَّ الإنسان كما تثير خياله بهذه الحركة التَّخييلية السَّريعة ، الَّتي يصوِّرها التَّعبير ؛ لأنَّ حركة الاشتعال هنا حركة ممنوحة للشَّيب ، وليست له في الحقيقة ، وهذه الحركة هي عنصر الجمال الصَّحيح. يدلُّ على ذلك أنَّ الجمال في : **" اشتعل البيت نارًا "** ، لا يقاس ولا يقرب من قول القرآن : ﴿ **وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا** ﴾ ، ففي التَّعبير بالاشتعال عن الشَّيب جمال ، وفي إسناد الاشتعال إلى الرَّأس جمال آخر ، يكمل أحدهما الآخر ، ومن كليهما لا من أحدهما ، كان هذا

---

[٥٢] عبد القاهر الجرجاني ، دلائل الإعجاز ، ص١٠١.

الجمال الباهر! وهذا ما حام حوله عبد القاهر ، ويبدو أنَّه كان يحسُّه في ضميره ، وإن لم يصوِّره كاملاً في تعبيره عنه ، أو على الأصحِّ أنَّه لم يمكنه التَّعبير عنه بلغة عصرنا الأخير ، ولا يقدح ذلك بالضرورة في جهده وتعبيره.[٥٣]

ويضاف إلى كلِّ ما سبق – فيما يتعلَّق بوظيفة الاستعارة وجمالها– أنَّه في تصوير تسارع انتشار الشَّيب في رأسه حتَّى عمّ الرَّأس بحالة الاشتعال الَّذي يسارع انتشاره في الهشيم ، دلالة على الحالة النَّفسية الَّتي أخذ يعاني منها زكريا عليه السَّلام ، والَّتي بدأت تكويه بنار اليأس الَّتي أخذ لهبها ينتشر شيباً في شعر رأسه ، وفيها تصوير لإحساسه بهذا الشَّيب الَّذي كأنَّه اختطف شبابه في سرعة فائقة أو صيره رمادًا ، وكأن الشَّيب نار اشتعلت في شبابه. والدَّليل على إرادته التَّعبير عمَّا يحسُّه أنَّه **" لو قال : ظهر الشَّيب لكان كأنَّه يصف ظهور الشَّيب فقط ، ثمَّ جاء إسناد الاشتعال إلى الرَّأس ، والرَّأس مكان الاشتعال ، والمشتعل حقيقة هو الشَّعر في الرَّأس ، فأكَّد بهذا إحساسه بعموم الشَّيب ، واستغراقه لجميع رأسه "**.[٥٤]

وهناك من الجمال والبلاغة في النَّظم ما نكتفي منه بنقل هذه العبارة الَّتي تجمل بعض ما فصَّلناه ، إذ يقول العلويّ عن الاستعارة في الآية ﴿ **وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا** ﴾ : **" وهي من محاسن المجاز ، ومن مثمرات البلاغة ، وبلاغتها قد ظهرت من جهات ثلاث :**

الجهة الأولى إسناد الاشتعال إلى الرَّأس لإفادة شمول الاشتعال بجميع الرَّأس ، بخلاف ما لو قال : اشتعل شيب رأسي ، فإنَّه لا يؤدِّي هذا المعنى بحال ، فاشتعل رأسي وزان : اشتعلت النَّار في بيتي ، واشتعل رأسي شيباً وزان : اشتعل بيتي ناراً.

الجهة الثَّانية الإجمال والتَّفصيل في نصب التَّمييز ، فإنَّك إذا نصبت **" شَيْباً "** كان المعنى مخالفاً لما إذا رفعته ، فقلت : اشتعل شيبُ رأسي ، لما في النَّصب من المبالغة دون غيره.

الجهة الثَّالثة تنكير قوله شيباً ، لإفادة المبالغة ، ثمَّ إنَّه ترك لفظ **" منِّي "** في قوله ﴿ **وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا** ﴾ ، اتِّكالا على قوله : ﴿ **وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي** ﴾.

ثمَّ إنَّه أتى به في الأوَّل ، بياناً للحال وإرادة للاختصاص بحاله في إضافته إلى نفسه ، ثمَّ عطف الجملة الثَّانية على الجملة الأولى بلفظ الماضي ، لما بينهما من التَّقارب والملاءمة ، فانظر

---

[٥٣] ينظر سيد قطب ، التصوير الفني في القرآن ، ص٣٣.

[٥٤] أبو موسى ، خصائص التراكيب ، ١/ ٩٤-٩٥.

إلى هذا السِّياق المثمر المورق ، وجودة هذا الرَّصف المعجب المونق ، كيف ترك جملة إلى جملة ، إرادة للإجمال بعده التفصيل ، من أجل إيثار البلاغة حتَّى انتهى إلى خلاصها ، ودهن لبِّها ومصاصها. وهو جوهر الآية ونظامها بأوجز عبارة وأخصرها ، وأظهر بلاغة وأبهرها.[٥٥]

(٥) وفي قوله تعالى : ﴿ **ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ اِئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ** ﴾ [فصلت : ١١].

يقول ابن الأثير : **" نسبة القول إلى السَّماء والأرض من باب التَّوسُّع ؛ لأنَّهما جماد ، والنُّطق إنَّما هو للإنسان لا للجماد "**.[٥٦] وعليه شُبِّهت السَّماء والأرض في انقيادهما وخضوعهما وطاعتهما لله بإنسان يتميَّز بصفة القول ، والإتيان ، وحذف المشبَّه به **" الإنسان "** ورمز إليه بشيء من لوازمه ، وهو القول والإتيان ، على سبيل الاستعارة المكنيَّة ، والقرينة إثبات القول والإتيان إلى السَّماء والأرض.

والغرض من الاستعارة البيان والإيضاح أو قل التَّصوير الَّذي يكشف عن معنى كما يفهم من قول الزَّمخشريّ : **" ومعنى أمر السَّماء والأرض بالإتيان ، وامتثالهما ، أنَّه أراد تكوينهما فلم يمتنعا عليه ، ووجدتا كما أرادهما ، وكانتا في ذلك كالمأمور المطيع ، إذا ورد عليه فعل الآمر المطاع ، وهو من المجاز الَّذي يسمَّى تمثيلاً ، ويجوز أن يكون تخييلاً ، ويعني الأمر فيه على أنَّ الله تعالى كلَّم السَّماء والأرض ، وقال لهما ائتيا شئتما ذلك أو أبيتماه ، فقالتا : أتينا على الطَّوع لا على الكره ، والغرض تصوير أثر قدرته في المقدورات لا غير "**.[٥٧]

فحينما تصوَّر الأرض والسَّماء عاقلتين ، يوجَّه إليهما الخطاب ، وتسرعان بالجواب فهذا من نقل صفة الحيِّ وإضفائها على الَّذي لا حياة له باستنطاق الجماد ومخاطبته ، لغرض بيان المعنى ، وحاصله أنَّه عبَّر عن إرادته بأنَّه قال لهما : ائتيا طوعاً أو كرهاً ، وعبَّر عن انقيادهما لمشيئته ، بأنَّهما قالتا : أتينا طائعين.[٥٨] وفي التَّعبير كما يرى ابن أبي الحديد إبانة عن نفوذ إرادته ومشيئته[٥٩] ، وفي موضع آخر إيضاح لسرعة الإبداع.[٦٠]

---

[٥٥] العلوي ، الطراز لأسرار البلاغة ، ٣/ ٢٣١-٢٣٢.

[٥٦] ابن الأثير ، المثل السائر ، ٢/ ٦٦.

[٥٧] الزمخشري ، الكشاف ، ٤/ ١٩٤.

[٥٨] ابن الشجري ، أمالي ابن الشجري ، ٢/ ٥١.

[٥٩] ابن أبي الحديد ، شرح نهج البلاغة ، ١/ ٤١٨.

وفي التَّعبير بالاستعارة في الآية إيحاء بكثير من المعاني الَّتي تتراءى للمتأمِّل ، ومن ذلك معنى خضوعها واستسلامها مع السُّرعة في الاستجابة للأمر وقيل : معنى الأمر في قوله للمخلوقات **" كُنَّ "** وفي قوله : ﴿ **اِئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ** ﴾ ونحوه إنَّما هو إظهار انفعال ما يريد تعالى أن يفعله وإبرازه للوجود بسرعة وتنزيله منزلة ما يؤمر فيمتثل.[٦١]

والصُّورة الاستعارية في الآية ضخمة في إيحائها ، تبرز الطَّبيعة ، وهي خاضعة لله ، وملتزمة بقوانينه الَّتي وضعها لها ، فتشبيه الجماد بمأمور متبادر إلى الامتثال توحي **" تعريضاً بالإنسان من جهة كونه أحقَّ بذلك ، كما فيه تفخيم لشأن الطَّاعة بأنَّ مشابهها يتسارع له الجماد لعظمة شأنه فكيف بها "**.[٦٢] وكما يقول سيِّد قطب **" إنَّها إيماءة عجيبة إلى انقياد هذا الكون للنَّاموس ، وإلى اتِّصال حقيقة هذا الكون بخالقه اتِّصال الطَّاعة والاستسلام لكلمته ومشيئته. فليس هنالك إذن إلَّا هذا الإنسان الَّذي يخضع للنَّاموس كرهاً في أغلب الأحيان. إنَّه خاضع حتماً لهذا النَّاموس ، لا يملك أن يخرج عنه ، وهو ترس صغير جدّاً في عجلة الكون الهائلة والقوانين الكونيَّة الكلِّيَّة تسري عليه رضي أم كره. ولكنَّه هو وحده الَّذي لا ينقاد طائعاً طاعة الأرض والسَّماء ، إنَّما يحاول أن يتفلَّت "**.[٦٣]

ومن خصائص الاستعارة أيضاً بثُّ الحياة والنُّطق في الجماد كما ذكرنا آنفا ، وهذه هي طريقة القرآن الكريم في تصوير الجمادات ، حيَّة شاخصة ، بإضفاء الصِّفات الإنسانيَّة عليها ، كي تكون أكثر إيحاء ، وأشدَّ تأثيراً في النَّفس الإنسانيَّة.[٦٤] وهذا ما نجده في هذه الصُّورة الَّتي كان الزَّمخشريّ قد ألمح إليها حينما وقف على هذه الآية فقال : **" وهو من المجاز الَّذي يسمَّى التَّمثيل ويجوز أن يكون تخييلاً ، ويبنى الأمر فيه على أنَّ الله تعالى كلَّم السَّماء والأرض وقال لهما : ائتيا شئتما ذلك أو أبيتماه فقالتا : أتينا على الطَّوع لا على الكره "**.[٦٥] والتَّعبير بذلك يفيد

---

(٦٠) ابن أبي الحديد ، المصدر السابق ، ١/ ٤٢٢.

(٦١) أبو حيان ، البحر المحيط ، ٤/ ١٦٤.

(٦٢) شهاب الدين الخفاجي ، حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي ، ٧/ ١٨٦.

(٦٣) سيد قطب ، في ظلال القرآن ، ٥/ ٣١١٤.

(٦٤) الراغب ، وظيفة الصورة الفنية في القرآن ، ص٢٠٤.

(٦٥) الزمخشري ، الكشاف ، ٤/ ١٩٤.

تشبيههما بمن يعقل في تلقِّي السُّؤال والإجابة عنه ، وهي استعارة يأتي جمالها من هذا التَّشخيص ، وهذه الصُّورة الخياليَّة للأرض والسَّماء ، تدعيان وتجيبان الدُّعاء.

وبما أنَّ التَّخييل يقتضي إضفاء الحركة على الصُّورة فقد تميّزت الصُّورة هنا بذلك ، نظراً لكون الحركة هي مظهر من مظاهر الحياة والكون ، وهي سمة من سمات الصُّورة في القرآن الكريم ، فهي مظهر كونيٌّ كما أنَّها مظهر فنِّيٌّ ، ومن هنا تكتسب تأثيرها في النَّفس الإنسانيَّة. وفي هاتين الآيتين حركة تتمثَّل في استنطاق الجماد ومخاطبته ، بنقل صفة الحيِّ وإضفائها على الَّذي لا حياة له ، كما تتمثَّل في تصوير استجابتهما إتياناً. وهذه الحركة هي الَّتي سمَّاها سيِّد قطب **" التَّخييل الحسِّيَّ "** [٦٦] ، وهي الَّتي يسير عليها التَّصوير في القرآن لبثِّ الحياة في شتَّى الصُّور ، وذلك ما تقف الاستعارة في الآيتين شاهداً عليه.

(٦) وفي الآية : ﴿ **تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ** ﴾ [الملك : ٨].

يقول الشَّريف الرَّضي : **" تغيَّظت القدر. إذا اشتدَّ غليانها ، ثمَّ صارت الصِّفة به مخصوصة بالإنسان المغضب. وقد جرت عادتهم في صفة الإنسان الشَّديد الغيظ بأن يقولوا : يكاد فلان يتميَّز غيظاً ؛ أي تكاد أعصابه المتلاحمة تتزايل ، وأخلاطه المتجاورة تتنافى وتتباعد ، من شدَّة اهتياج غيظه ، واحتدام طبعه. فأجرى سبحانه هذه الصِّفة ، الَّتي هي أبلغ صفات الغضبان ، على نار جهنَّم لمَّا وصفها بالغيظ ، ليكون التَّمثيل في أقصى منازله ، وأعلى مراتبه "**.[٦٧]

فكأنَّه قد شبِّهت النَّار بالإنسان ، الَّذي من شأنه إذا بلغ ذلك الحدَّ أن يبالغ في الانتقام ، ويتجاوز الغايات في الإيقاع والإيلام. ثمَّ حذف المشبَّه به أي الإنسان ، ورمز إليه بشيء من لوازمه **" الغيظ "** على سبيل الاستعارة المكنيَّة ، والقرينة إثبات الغيظ إلى النَّار.

وبعد ، فالاستعارة هنا ليست مرادة لذاتها شأنها شأن كلِّ استعارة في القرآن ، وإنَّما لتؤدِّي وظيفة لا تؤدِّيها الحقيقة ، ومن ذلك البيان مع الإيجاز كما لاحظ أبو هلال إذ يقول : **" واستعارة الغيظ لشدَّة الغليان أوجز وأبلغ في الدَّلالة على المعنى المراد ؛ لأنَّ مقدار شدِّته على النَّفس مدرك محسوس ؛ ولأنَّ الانتقام الصَّادر من المغيظ يقع على قدر غيظه ، ففيه**

---

[٦٦] سيد قطب ، التصوير الفني ، ص ٧٢.

[٦٧] الشريف الرضي ، تلخيص البيان ، ص ٣٣٩.

بيان عجيب وزجر شديد لا تقوم مقامه الحقيقة البتَّة ".[٦٨] وحتَّى في قوله **" تميَّز "** الَّذي هو استعارة أيضاً إيجاز بليغ إذ إنَّ المعنى كما قال ابن عطيَّة : **" أي يزايل بعضها بعضاً لشدَّة الاضطراب "** [٦٩] ، فعبَّرت هذه اللَّفظة الواحدة عن كلِّ تلك المعاني.

فالاستعارة كما يفهم ممَّا سبق قد حقَّقت غرضين من أغراض الاستعارة هما الإيجاز والبيان ، كما تضافر هذان الغرضان لرسم صورة واضحة كلَّ الوضوح لجهنَّم وإبرازها في صورة تنخلع القلوب من هولها رعباً وفزعاً ، صورة مخلوق ضخم بطَّاش ، هائل جبَّار ، مكفهرِّ الوجه عابس يغلي صدره غيظاً وحقداً. وكلُّ ذلك مع الإيجاز الَّذي يكثِّف الصُّورة ، ويلوِّن المعاني في الآية كلَّ هذا التَّلوين ، وهي الَّتي بثَّت فيها كلَّ هذا القدر من التَّأثير الَّذي ارتفع ببلاغتها إلى حدِّ الإعجاز.

كما لا تخفى علينا خاصِّيَّة المبالغة الَّتي أدَّتها هذه الاستعارة ، فكون جهنَّم تتميَّز من الغيظ يعني ذلك أنَّها حامية حَمْي غيظ وغضب مبالغة في شدَّة الانتقام ، فلمَّا وصفت بالفوران في قوله تعالى ﴿ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ﴾ [الملك : ٧] **" بيَّن سببه تمثيلاً لشدَّة اشتعالها عليهم فقال : " تكاد تميَّز " أي تقرب من أن ينفصل بعضها من بعض كما يقال : يكاد فلان ينشقُّ من غيظه وفلان غضب فطارت شقَّة منه في الأرض وشقَّة في السَّماء كناية عن شدَّة الغضب " من الغيظ " أي عليهم ، كأنَّه حذف إحدى التَّائين إشارة إلى أنَّه يحصل منها افتراق واتِّصال على وجه من السُّرعة لا يكاد يدرك حقَّ الإدراك ، وذلك كلُّه لغضب سيِّدها "**.[٧٠] والحاصل أنَّ المراد بهاتين الصِّفتين المبالغة في وصف النَّار بالاهتياج والاضطرام ، على عادة المغيظ والغضبان.

وتصوير هذه النيران ملتهبة يسمع لظاها من مدى بعيد ، فكأنَّما تبدي غيظها ممَّا اقترفه هؤلاء الجناة ، وذلك ممَّا يوحي بقوَّة الغضب الَّذي يملؤها ، حتَّى لتكاد تضيق به وتنفجر ، فهذا التَّمُّيز من الغيظ يشعر بعظم ما جناه أولئك الكفرة حتَّى لقد شعر به واغتاظ منه هذا الَّذي لا يحسُّ ، على نحو ما في قوله سبحانه ﴿ **كَلَّا إِنَّهَا لَظَى (١٥) نَزَّاعَةً لِلشَّوَى (١٦) تَدْعُوا**

---

[٦٨] أبو هلال العسكري ، الصناعتين ، ص ٢٧١.

[٦٩] ابن عطية ، المحرر الوجيز ، ١٥/ ٨.

[٧٠] البقاعي ، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ، ٢٠/ ٢٣٤- ٢٣٥.

مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى ﴾ [المعارج : ١٥ – ١٧] الَّذي يجعلنا نحسُّ كأنَّ النَّار تعرف أصحابها بسيماهم فتدعوهم إلى دخولها.

فجهنَّم هنا مخلوقة حيَّة ، تكظم غيظها ، فترتفع أنفاسها في شهيق وتفور ويملأ جوانحها الغيظ فتكاد تتمزَّق من الغيظ الكظيم وهي تنطوي على بغض وكره يبلغ إلى حدِّ الغيظ والحنق على الكافرين. والتَّعبير في ظاهره يبدو مجازاً لتصوير حالة جهنَّم **" ولكنَّه – فيما نحسُّ – يقرِّر حقيقة. فكلُّ خليقة من خلائق الله حيَّة ذات روح من نوعها. وكلُّ خليقة تعرف ربَّها وتسبِّح بحمده وتدهش حين ترى الإنسان يكفر بخالقه ، وتتغيَّظ لهذا الجحود المنكر الَّذي تنكره فطرتها ، وتنفر منه روحها "**.[٧١]

أمَّا بلاغة هذه الاستعارة من حيث الابتكار وروعة الخيال ، وما تحدثه من أثر في نفوس سامعيها ، فيظهر في التَّشخيص– إذ إنَّ **" البيان القرآنيَّ المعجز لا ينطق الجماد الأصمَّ فحسب ، بل يجرِّد منه كذلك شخصيَّة حيَّة ، فاعلة ناطقة ، مريدة مدركة "**كما تقول بنت الشَّاطئ.[٧٢] وهذا ما لاحظه القدماء قبلها ، فالرُّمانيِّ أحسَّ بالصِّفة الآدميَّة الَّتي جعلت من النَّار إنساناً يبكي من الغيظ ، وتكاد تتقطَّع غيظاً من الكافرين ، بعد انتظار طويل. وقد أحسَّ بدافع الانتقام الَّذي جعلها عاقلة أشركت في مهمَّة قصد العذاب ، ومع أنَّه بدأ شارحاً إلَّا أنَّه نبَّه إلى قدرة التَّرويع في هذه الاستعارة ، وملمِّحاً إلى الحالة النَّفسيَّة الَّتي اكتسبتها النَّار المغتاظة.[٧٣]

وصورة النَّار في الآية حيَّة شاخصة ، معروضة في مشهد مثير ومخيف ، ويتمُّ استعراضها بشكل مطوَّل في المشهد ، وتضفى عليها الحياة والحركة ، لزيادة التَّأثير في النُّفوس. وهذه آية من آيات ، منها : ﴿ **يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ** ﴾ [ق : ٣٠] ، و ﴿ **كَلَّا إِنَّهَا لَظَى (١٥) نَزَّاعَةً لِلشَّوَى (١٦) تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى** ﴾ [المعارج : ١٥–١٧] ، ﴿ **إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا** ﴾ [الفرقان : ١٢] في ذكر جهنَّم وتصوير أهوالها ، أسبغ البيان القرآنيُّ عليها صفات جديدة ، لتفجير طاقة التَّأثُّر ، بما

---

[٧١] سيد قطب ، في ظلال القرآن ، ٦/ ٣٦٣٤– ٣٦٣٥.

[٧٢] بنت الشاطئ ، التفسير البياني ، ١/ ٨٨.

[٧٣] ينظر الرماني ، النكت ، ص٨٧.

يكنُّه التَّخييل الَّذي تبعثه المفردة في ثوبها الجديد ، لزيادة أثرها في النُّفوس فجهنَّم كما يقول سيِّد قطب : **" في هذا المشهد حيَّة متحرِّكة يلقى إليها الَّذين كفروا كما يلقون إلى الغول ، فتتلقَّاهم بشهيق وهي تفور ، يملأ نفسها الغيظ حتَّى لتكاد جوانبها تتفجر من الحقد. إنَّه مشهد مروِّع ، تضطرب له القلوب ، وتقشعرُّ لهوله الجلود ، وبينما هم في فزع من هذه الغول ، الَّتي تتميَّز من الغيظ ، وهي تتلقَّفهم بشهيق وهي تفور "**.[٧٤]

(٧) وفي قوله تعالى : ﴿ **وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ** ﴾ [التكوير : ١٨].

أفاض العلماء الأوائل في بيان وجه المجاز في الآية مع التَّنويه ببلاغتها ، وإن ركَّزوا على الفعل تنفَّس في تخريجهم للاستعارة.[٧٥] وعليه تكون الاستعارة تصريحيَّة تبعيَّة ، وقد ذهب بعضهم إلى **" أنَّه شبَّه اللَّيل المظلم بالإنسان المكروب المحزون الَّذي جلس بحيث لا يتحرَّك ، واجتمع الحزن في قلبه ، فإذا تنفَّس وجد راحة فههنا لمَّا طلع الصُّبح فكأنَّه تخلَّص من ذلك الحزن ، فعبَّر عنه بالتَّنفُّس وهو استعارة لطيفة "**.[٧٦] وبناء على ما سبق يكون قد شبَّه الصُّبح بإنسان يتنفَّس فحذف المشبَّه به الإنسان ، ورمز إليه بشيء من لوازمه على سبيل الاستعارة المكنيَّة ، والقرينة إثبات التَّنفُّس إلى الصُّبح.

وأوَّل ما يلفت النَّظر في هذه الاستعارة من ناحيتي الوظيفة والجمال ما امتازت به من دقَّة في أداء المعنى ، ورسم الصُّورة سواء أكان ذلك في لفظها المفرد أم في سياق نظمها في العبارة ، وتناسبها مع ما حولها فاختيار لفظة **" تنفَّس "** فيه دقَّة في رسم المشهد وتصوير حقيقة الصُّبح ، إذ إنَّ خروج النُّور فجراً أشبه ما يكون بحركة النَّفس الَّذي ينساب بلا صوت متتابعاً فيكون بذلك أشبه الأشياء بخروج النَّفس شيئاً فشيئاً. وهنا الإعجاز في اختيار الألفاظ لمواضعها ، ونهوض هذه الألفاظ برسم الصُّور على اختلافها.

والدَّليل على الدِّقة المشار إليها أنَّنا نجد فيها الكلمة تدلُّ على معنى لو غيّرت بغيرها تبدو وكأنَّها في معناها ، ومرادفًة لها لأوَّل وهلة ، لكنَّه لو تأمَّلنا وجدنا الكلمة البديلة لا تؤدِّي المعنى الَّذي يشرق من الأولى ، ولا الصُّورة الَّتي ترسمها ، فعلى سبيل المثال لو أردنا تغيير

---

[٧٤] سيد قطب ، مشاهد القيامة ، ص٢٠٨.

[٧٥] ينظر مثلا الزركشي ، البرهان في علوم القرآن ، ٣/ ٤٣٥.

[٧٦] الرازي ، مفاتيح الغيب ، ٣١/ ٦٩.

كلمة من هاتين الكلمتين لتغيَّرت الصُّورة البيانيَّة ، ولننظر فيهما ، فلو أخذنا كلمة **" الصُّبح "** ، واستبدلناها بكلمة الفجر الَّتي تبدو مرادفة لها ، فعند التَّحقيق نجد كلمة الفجر فيها بيان إنهاء اللَّيل ، وفي الصُّبح ابتداء النَّهار ، فالدَّلالة اللُّغويَّة الدَّقيقة مختلفة : فهذا إشراق ، وذاك إنهاء.

والكلمة الثَّانية : كلمة **" تَنَفَّس "** ، فإنَّ كلمة التَّنفُّس في ذاتها تدلُّ على بدء مظاهر الحياة شيئًا فشيئًا ؛ وذلك لأنَّ أصل التَّنفُّس من النَّفس ، ولو أنَّنا وضعنا كلمة أشرق بدل تنفَّس ، كأن نقول : والصُّبح إذا أشرق ، أو أصبح أو أنار أو أضاء ، فإنَّ أيَّة كلمة منها أو كلمات لا تقوم مقام تنفَّس ، ولا تسدُّ مسدَّها.[٧٧]

ولو أنَّنا تركنا لفظ تنفَّس بانفرادها ، وتابعناها مقترنة بكلمة الصُّبح ، فنحن نجد الرَّوعة والجمال باجتماع كلمتي الصُّبح والتَّنفُّس ما لا نجده لو جيء بأيَّة كلمة لتوضع مكان إحداهما ، فلو قلنا **" الفجر إذا تنفَّس "** لم تخالط النَّفس الرَّوعة الَّتي كانت ، ولم نحسّ بهذا التَّأثُّر الَّذي تصوِّره جملة **" والصُّبح إذا تنفَّس "** من ذلك المشهد الَّذي ينساب فيه ضوء الصَّباح في الفضاء ، فيطوي رداء الظَّلام ، وتسري الحياة في عالم الأرض ، حيث تبدأ كلُّ مظاهر الحياة تتدرَّج في الظُّهور ، حتَّى يصل إلى الضُّحى. فما من كلمة تدلُّ على هذه المعاني أبلغ من عبارة : **" والصُّبح إذا تنفَّس "** ، وبهذا يتبيَّن أنَّ ألفاظ القرآن الكريم تأتي كلُّ كلمة منها في حيِّزها ، لا يملأ غيرها في موضعها فراغها. وفيما سبق تصديق لنظرة الجرجانيّ الَّذي نفي مزيَّة اللَّفظ المنفرد باعتبار أنَّ مزيَّة الكلمة **" حال لها مع أخواتها المجاورة لها في النَّظم "**.[٧٨] فيكون لها بانضمامها صورة بيانيَّة من الهيئة المجتمعة.

كذلك نجد في التَّعبير بالاستعارة في الآية الإيحاء ، وعماده : معاني المفردات ، وصوتها ، وتركيب العبارة ، والصُّورة في مجملها ، يقول صبحي الصَّالح **" وفي القرآن كثير من الألفاظ ، تشعُّ منها قوى توحي إلى النَّفس بالمعنى وحياً ، فتشعر به شعوراً عميقاً ، وتحسُّ الفكرة إحساساً قويّاً. خذ مثلاً قوله تعالى : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ (١٧) وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾** [التكوير : ١٧-١٨]. **فتأمَّل ما توحي به كلمة " تَنَفَّسَ " من تصوير هذه اليقظة الشَّاملة**

---

[٧٧] ينظر أبو زهرة ، المعجزة الكبرى القرآن ، ص٨٤.

[٧٨] الجرجاني ، دلائل الإعجاز ، ص ٤٨.

للكون بعد هدأة اللَّيل ، فكأنَّما كانت الطَّبيعة هاجعة هادئة ، لا تحسُّ فيها حركة ولا حياة ، وكأنَّما الأنفاس قد خفتت حتَّى لا يكاد يحسُّ بها ولا يشعر ، فلمَّا أقبل الصُّبح صحا الكون ، ودبَّت الحياة في أرجائه ".[٧٩]

فاستعارة التَّنفُّس للصُّبح تبعث في النَّفس الشُّعور بما في الصُّبح من يقظة وحياة ، بل التَّعبير أظهر حيويَّة ، وأشدُّ إيحاء من أيِّ تعبير غيره ، فالصُّبح حيٌّ يتنفَّس ، أنفاسه النُّور والحياة والحركة الَّتي تدبُّ في كلِّ حيٍّ. وتحمل معنى الحياة الَّتي دبَّت في الكون بعد طول هجوع ، واليقظة الَّتي شملته بعد رقاد وهمود ، ويصوِّر الوجود ، وقد بدأ يفتح عينيه وينهض من سبات ، وكما قال سيِّد قطب : **" وأكاد أجزم أنَّ اللُّغة العربيَّة بكلِّ مأثوراتها التَّعبيرية لا تحتوي نظيراً لهذا التَّعبير عن الصُّبح. ورؤية الفجر تكاد تشعر القلب المتفتِّح أنَّه بالفعل يتنفَّس! ثمَّ يجيء هذا التَّعبير فيصوِّر هذه الحقيقة الَّتي يشعر بها القلب المتفتِّح "**.[٨٠]

وكما رأينا فيما سبق فإنَّ من أهمِّ خصائص الاستعارة تجسيد المعاني ، وتشخيص المجرَّدات ، وخلع الحياة على من لا حياة فيه ، فتصبح المعنويَّات والأمور المجرَّدة شاخصة أمام الأعين ، ويصير فاقد الحياة الاستعارة حيَّاً متحرِّكاً. فالاستعارة هنا بثَّت في الصُّبح الحياة ، وأضفت عليه صفات الكائن الحيِّ ، فهو يتنفَّس كما يتنفَّس الأحياء ، ولكنَّ تنفُّسه الحركة والضِّياء وانبعاث مظاهر الحياة.

ولا يكتفي التَّعبير القرآنيُّ بتشخيص الفجر إنَّما يضيف إليه التَّخييل الَّذي يتمثَّل في خلع الحياة والحركة على الجمادات ، ومظاهر الطَّبيعة ، والانفعالات الوجدانيَّة. لتهب لهذه الأشياء كلِّها عواطف آدميَّة ، وخلجات إنسانيَّة ، تشارك بها الآدميِّين ، وتأخذ منهم وتعطي ؛ وتتبدَّى لهم في شتَّى الملابسات ؛ وتجعلهم يحسُّون الحياة في كلِّ شيء تقع عليه العين ، أو يتلبَّس به الحسُّ[٨١] ، كما في هذه الاستعارة الَّتي تخلع الحياة في هذه الآية على الصُّبح ، حتَّى يخيَّل لنا أنَّه كائن حيٌّ يتنفَّس ، بل إنسان ذو عواطف وخلجات نفسيَّة تشرق الحياة بإشراقة من ثغره الَّذي تبدو منه ابتسامة وديعة ، وهو يتنفَّس بهدوء ؛ فتتنفَّس معه الحياة الوديعة الهادئة ، ويدبُّ النشاط في الأحياء ، على وجه الأرض والسَّماء.

---

[٧٩] بدوي ، من بلاغة القرآن ، ص٥٧ – ٥٨.

[٨٠] سيد قطب ، في ظلال القرآن ، ٦/ ٣٨٤٢.

[٨١] سيد قطب ، في ظلال القرآن ، ٦/ ٣٨٤٢.

الخاتمة :

وقف هذا البحث فيما سبق من صفحات على الاستعارة عموماً – والمكنيَّة خاصَّة – في القرآن ووجودها فيه متابعة لسنن العرب في كلامها ، وارتباط الاستعارة بقضيَّة الإعجاز كما أشار إلى ذلك عدد من القدامى والمحدثين ، مع عرض نماذج من هذا الضَّرب من الاستعارة في التَّنزيل لبيان الوظيفة الَّتي تؤدِّيها ، مع بيان جمال التَّعبير وبلاغته عن طريق الاستعارة في مقابل الحقيقة ، وقد خلصت الدِّراسة إلى عدد من النتائج يمكن إجمالها فيما يأتي :

- القرآن لم يعْدُ ما تعارفته العرب من استعارة في أساليبها ، وطرائقها في التَّعبير.
- التَّحدي بالإتيان بمثل القرآن كان يقتضي أن يستعمل ما استعملوه في أشعارهم ومخاطباتهم من سنن الكلام ، مع الإتيان من ذلك ما هو الغاية في بابه.
- استعمال القرآن للاستعارة في كلِّ موضع أبلغ من الحقيقة في ذلك الموضع لما تؤدِّيه من معانٍ وأغراض : كالمبالغة ، والتَّوكيد ، والبيان ، والإيجاز... الخ ـ ممَّا لا تؤدِّيه الحقيقة لو استعملت في ذلك الموضع.
- تداخلت وظيفة الاستعارة المكنيَّة في القرآن مع الجمال التَّعبيري ووجدنا من ذلك : الدِّقة في أداء المعاني ، تصوير المعاني وتمثيلها للنَّفس ، تكثيف المعنى بتركيز الصُّورة ، التَّخييل عن طريق التَّشخيص والتَّجسيم الَّذي يبرز المعاني في صورة محسوسة ، التَّأثير النَّفسي ، الإيحاء بمعانٍ تبدو من خلف الألفاظ المستعارة ، رسم نموذج بشريٍّ لأداء غرض دينيٍّ أو خلقيٍّ.

وقد حاولنا بيان بعض هذه الأسرار البلاغيَّة الَّتي تشتمل عليها الاستعارات القرآنيَّة ، ولا ندَّعي حصرها إذ لم يكن ذلك هو الغرض من هذا البحث ، كما لا ندَّعي إيفاء هذه الاستعارات – الَّتي مثلنا بها – حقَّها من البيان ، من حيث جمال التَّعبير فيها ، أو إدراك أسرارها البلاغيَّة ، فإنَّ ذلك مطلب عسير.

المصادر والمراجع :

أوَّلاً : القرآن الكريم

ثانياً : المراجع والمصادر :

- ابن أبي الإصبع ، أبو محمد زكي الدين عبد العظيم بن عبد الواحد **" تحرير التحبير "** تحقيق حفني محمد شرف ، [د . ت] المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – لجنة إحياء التراث الإسلامي ، الجمهورية العربية المتحدة.
- ابن أبي الحديد ، أبو حامد ، عز الدين عبد الحميد بن هبة الله :
- **" شرح نهج البلاغة "** ، تحقيق : محمد عبد الكريم النمري ، ط١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، ١٤١٨هـ / ١٩٩٨م.
- **" الفلك الدائر على المثل السائر – مطبوع بآخر الجزء الرابع من المثل السائر "** ، تحقيق : أحمد الحوفي ، بدوي طبانة ، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع ، الفجالة – القاهرة ، [د. ت].
- ابن الأثير ، ضياء الدين نصر الله بن محمد ، **" المثل السائر "** ، تحقيق : أحمد الحوفي و بدوي طبانة ، دار نهضة مصر ، [د. ت].
- ابن رشيق ، أبو على الحسن بن رشيق القيرواني ، **" العمدة في محاسن الشِّعر وآدابه "** ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، ط٥ ، دار الجيل ، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.
- ابن الشجري ، ضياء الدين أبو السعادات هبة الله بن علي بن حمزة ، **" أمالي ابن الشجري "** ، تحقيق : الدكتور محمود محمد الطناحي ، ط١ ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ١٤١٣هـ/ ١٩٩١م.
- ابن سنان الخفاجي ، أبو محمد عبد الله بن محمد بن سعيد ، **" سر الفصاحة "** ، ط١ ، دار الكتب العلمية ، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م.
- ابن عاشور ، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر ، **" التحرير والتنوير "** ، ط١ ، مؤسسة التاريخ العربي ، بيروت – لبنان ، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م.
- ابن عطية ، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن ، **" المحرر الوجيز "** ، تحقيق : عبد السَّلام عبد الشافي محمد ، ط١ ، دار الكتب العلمية – لبنان ، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.

- ابن معصوم : صدر الدين المدني ، علي بن أحمد بن محمد معصوم ، **" أنوار الربيع في أنواع البديع "** ، تحقيق شاكر هادي البديع ، ط١ ، مطبعة النعمان- النجف ، ١٩٦٩م.
- ابن منظور ، محمد بن مكرم ، **" لسان العرب "** ، ط١ ، دار صادر – بيروت ، [د. ت].
- أبو حيان ، محمد بن يوسف ، **" البحر المحيط "** ، تحقيق : الشيخ عادل أحمد عبد الموجود وآخرين ، ط١ ، دار الكتب العلمية ، لبنان- بيروت ، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.
- أبو زهرة ، محمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد : **" زهرة التفاسير "** ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، [د. ت].
- **" المعجزة الكبرى القرآن "** ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، [د. ت].
- أبو السُّعود ، محمد بن محمد بن مصطفى ، **" إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم "** ، دار إحياء التراث العربي – بيروت ، [د. ت].
- أبو موسى ، **" الدكتور "** محمد محمد أبو موسى **" خصائص التراكيب "** ، ط٧ ، مكتبة وهبة ، [د. ت].
- أبو هلال العسكريّ ، الحسن بن عبد الله بن سهل ، **" الصناعتين "** ، تحقيق : علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم ، المكتبة العصرية ، بيروت ، ١٤١٩هـ.
- الألوسي ، أبو الفضل شهاب الدين محمود بن عبد الله ، **" روح المعاني "** ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، [د. ت].
- أمين ، **" الدكتور "** بكري شيخ أمين ، **" البلاغة العربية في ثوبها الجديد ، علم البيان "** ، ط٢ ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٨٤م.
- بدوي ، **" الدكتور "** أحمد أحمد بدوي ، **" من بلاغة القرآن "** ، دار نهضة مصر ، القاهرة ، ٢٠٠٥م.
- البقاعي ، إبراهيم بن عمر بن حسن ، **" نظم الدرر في تناسب الآيات والسور "** ، دار الكتاب الإسلامي ، القاهرة ، [د. ت].
- بنت الشاطئ ، عائشة عبد الرحمن ، **" التفسير البياني "** ، ط٧ ، دار المعارف ، القاهرة ، [د. ت].
- الجرجانيّ ، عبد القاهر أبو بكر بن عبد الرحمن :

- **" أسرار البلاغة "** ، تحقيق : عبد الحميد هنداوي ، ط١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١ م.
- **" دلائل الإعجاز "** ، تحقيق : محمود محمد شاكر أبو فهر ، ط٣ ، مطبعة المدني بالقاهرة ، دار المدني بجدة ، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.
- حامد عوني ، **" المنهاج الواضح للبلاغة "** ، المكتبة الأزهرية للتراث [د. ت].
- الرازي ، أبو عبد الله محمد بن عمر ، **" مفاتيح الغيب "** ، ط٣ ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ١٤٢٠ هـ.
- الراغب ، **" الدكتور "** عبد السَّلام أحمد ، **" وظيفة الصُّورة الفنية في القرآن "** ، ط١ ، فصلت للدراسات والترجمة والنشر ، حلب ، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.
- الرَّافعيّ ، مصطفى صادق ، **" تاريخ آداب العرب "** ، دار الكتاب العربي ، [د. ت].
- الرُّمانيِّ ، أبو الحسن علي بن عيسى ، **" النكت في إعجاز القرآن ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن "** ، تحقيق : محمد خلف الله ، د. محمد زغلول سلام ، ط٣ ، دار المعارف بمصر ، ١٩٧٦م.
- الزركشي ، أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر ، **" البرهان في علوم القرآن "** ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط١ ، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي ، ١٣٧٦هـ/ ١٩٥٧م.
- الزَّمخشريّ : جار الله أبو القاسم محمود بن عمر ، **" الكشاف "** ، تحقيق : عبد الرزاق المهدي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، [د. ت].
- سيِّد قطب :
- **" التَّصوير الفني في القرآن "** ، ط١٧ ، دار الشروق ، بيروت – القاهرة ، [د. ت].
- **" مشاهد القيامة في القرآن "** ط١٦ ، دار الشروق ، بيروت – القاهرة ، ٢٠٠٦م.
- **" في ظلال القرآن "** ، ط١٧ ، دار الشروق ، بيروت– القاهرة ، ١٤١٢هـ.
- السيوطي ، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر ، **" الإتقان في علوم القرآن "** ، تحقيق :محمد أبو الفضل إبراهيم ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م.
- صبح ، **" الدكتور "** علي على مصطفى ، **" التَّصوير القرآني للقيم الخلقية والتشريعية "** ، المكتبة الأزهرية للتراث ، [د. ت].

- الشَّريف الرَّضي ، **" تلخيص البيان في مجازات القرآن "** ، دار الأضواء ، بيروت ، [د. ت].
- الشهَاب الخفاجي ، شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر ، **" حاشية الشهَاب على تفسير البيضاوي "** ، دار صادر ، بيروت ، [د. ت].
- العلويّ ، المؤيد باللهَّ يحيى بن حمزة ، **" الطراز لأسرار البلاغة "** ، ط١ ، المكتبة العصرية ، بيروت ، ١٤٢٣هـ.
- المطعني ، **" الدكتور "** عبد العظيم إبراهيم ، **" خصائص التَّعبير القرآني وسماته البلاغيَّة "** ، ط١ ، مكتبة وهبة ، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.
- النيسابوري ، نظام الدين الحسن بن محمد ، **" غرائب القرآن ورغائب الفرقان "** ، تحقيق : الشيخ زكريا عميران ، ط١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م .